

## تطوّر الدرس النحوي مع الخليل من خلال الكتاب

The development of the grammar lesson with Al-Khalil  
through the book

د. فاطمة الضاوي

جامعة تونس – تونس (تونس)

dhaoui.fatma2@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/09/24

تاريخ الإرسال: 2022/07/20

ملخص:

خصصنا هذا البحث للتّظّر في الفكر النّحوي للخليل بن أحمد الفراهيدي لعدّه محطة هامة في تاريخ النّحو العربي فهو النّقطة الفاصلة والمشاركة بين مرحلة المشافهة والتصنيف في النّحو العربي وقد اعتمده سيبويه مرجعا أولا في الكتاب إلى درجة نكاد معها إخراج كتاب ثان في النّحو للخليل، حيث نجده الملهم الأول لسيبويه وهو يقعد القواعد ويرسم القوانين فكان حضوره هاما في هذا المصنّف، وهو ما دعانا إلى تتبّع أثره وإضافته للدرس النّحويّ في الكتاب، وقد اندرجت إضافته ضمن مسار نشأة النّحو العربي فتوقّفنا عند النّشأة في عنصر أول من العمل قبل أن نقف عند الخليل في محطّات ثلاث وهي: الإعراب، والتصريف والاشتقاق، ضمن مسار ثان أدرجنا فيه هذا العلم وهو مرحلة البناء في النّحو العربي.

الكلمات المفتاحية: نشأة؛ إعراب؛ تصريف؛ اشتقاق؛ تععيد.

### Abstract:

We devoted this research to looking at the grammatical thought of Al-Khalil bin Ahmed Al-Farahidi, considering it an important station in the history of Arabic grammar. The first was Sibawayh, who was laying down rules and drawing laws. His presence was important in this work, which is what prompted us to trace its impact and add it to the grammar lesson in the book. His addition fell within the path of the emergence of Arabic grammar. These are: syntax, conjugation, and derivation, within a second path in which we have included this science, which is the stage of construction in Arabic grammar.

**keywords:** genesis, syntax, conjugation, derivation, rationing.

## مقدمة

نتناول في هذا البحث النظّر في تاريخيّة النّحو العربيّ في مرحلة ثانية بعد النّشأة وهي مرحلة البناء وقد خصصنا بهذه العمليّة الخليل بن أحمد الفراهيدي لما كان حرّياً بالبحث الالتفات لهذا العلم الذي أسهم بدرجة كبيرة في تطوير النّحو العربي والدّفع به إلى الاستقلال عن علم الفقه وقيامه علما. ولما كان الخليل أستاذا لصاحب الكتاب وهو قرآن النّحو في بعض تسمياته عدنا إلى هذا المصدر ليكون لنا مرجعا نستقي منه علم هذا الرّجل. لتتوقّف عند محطّات ثلاث في علم النّحو ظهرت مع الخليل وما تزال إلى اليوم قائمة وهي: الإعراب، والتّصريف والاشتقاق، لنكشف عن فكره الغزير الذي سبق زمنه بخطوات جعلته الملمه الأوّل لتلميذه وهو يصوغ القوانين والقواعد في عمليّة تأسيس للنظريّة النّحويّة العربيّة.

## 1- نشأة الدّرس النّحوي

ساهمت جملة من الظروف في نشأة النّحو العربي، وهي ظروف سياسيّة وتاريخيّة ودينيّة بالأساس، وقد احتضنت هذه الظروف الجزيرة العربيّة التي رشّحت لغة قريش لتكون عربيّة العرب من بين مجموعة من اللّغات، لتشهد المجالس حلقات لتدريس النّحو على غرار تدارس الفقه. انطلقت هذه المرحلة مع أبي الأسود الدّوّلي وصولا إلى الخليل الأستاذ المباشر لسيبويه.

شهدت هذه المرحلة ظهور مجموعة من النّحاة. الذين برزوا أو وصلتنا أخبارهم دون غيرهم. حملوا على عاتقهم مهمّة حفظ كلام العرب وكان على رأسهم - كما اتّفقت الروايات- أبو الأسود الدّوّلي (ت69هـ) الذي تتلمذ على يديه الكثيرون إلا أنّ معظمهم كان من القرّاء فلم يفتصلوا بين النّحو والقرآن ولم يتجاوزوا إعراب معاني القرآن. من بين هؤلاء الذين بلغتنا أخبارهم بنزر شديد نصر بن عاصم اللّيثي (ت89هـ)، وعنبسة بن معدان الفيل المهري (ت100هـ)، وعبد الرّحمان بن هرمز (ت117هـ) ويحيى بن يعمر العدواني (ت129هـ). وعلى يد هؤلاء نشأ نخبة حملوا راية النّحو وانتقلوا به من خدمة القرآن إلى خدمة اللّغة لعلّ من أبرزهم كما تذكر كتب التّراجم ابن أبي إسحاق (ت117هـ) وعيسى بن عمر (ت149هـ) وأبو عمرو ابن العلاء (ت154هـ) ثمّ الأخفش الأكبر (ت177هـ)

والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) ويونس بن حبيب (ت182هـ) والرّؤاسي (ت ؟) ثمّ سيويوه (ت188هـ) والكسائي (ت189هـ). وقد تأسّس بعد هذين العلمين الأخيرين مدرستي البصرة والكوفة وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه مع تلامذتهم.

أما نحة الطور الأوّل أو مرحلة التأسيس فقد أنّها كل من ابن أبي إسحاق وابن عمر وابن العلاء، أمّا عبد الله بن أبي إسحاق فهو "من النّحاة الذين لهم باع طويل في مجال القياس النّحوي... وهو أوّل متوجّه إلى القياس في مجال النّحو، وقد عاصر الحسن البصري وواصل بن عطا من المتكلمين"<sup>(1)</sup>، فقد "ظهر القياس على يديه، ولم يكن معروفا من قبل"<sup>(2)</sup>. فقد برع ابن أبي إسحاق في آليّة لم تكن معهودة من قبله وهو شكل من أشكال تطوّر الدّرس النّحوي.

أمّا عيسى بن عمر فهو "أوّل من بلغ غايته في كتاب النّحو"، وتذكر كتب التّراجم أنّ له مصنّفين هامّين أشاد الخليل بن أحمد بقيمتها في بيتين من الشّعر، وهما الجامع والكمال، يقول:

بطل النّحو جميعا كلّه      غير ما أحدث عيسى بن عمر  
فذاك إجماع وهذا كامل      وهما للنّاس شمس وقمر

لنلاحظ درجة من الوعي بحفظ اللّغة والنّوع نحو التّصنيف للانتقال من المشافهة إلى التّصنيف وإن لم ينجح الأمر إلّا مع سيويوه لضياح هذين المصنّفين إلّا أنّ هذه المحاولة وما صحبها من إعجاب عبّر عنه الخليل تكشف عن نقلة في الدّرس النّحوي ونزوعا نحو التّحرّر من القراءات.

أمّا أبو عمرو بن العلاء فقد برز ليعدّل كفة ميزان النّحو مع ابن أبي إسحاق، فلئن مدّ الأوّل القياس فقد كان أبو عمرو بن العلاء بشهادة الجاحظ: "أعلم النّاس بالغريب والعربيّة وبالقرآن والشعر وبآيām العرب وآيām النّاس"<sup>(3)</sup>. ويروى "عن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو عن ثمانية آلاف مسألة ممّا أحصيت عددها من أشعار العرب ولغاتها غير ما لم أحص، فكأنّه في قلوب العرب"<sup>(4)</sup>.

يأتي بعد هؤلاء تلامذتهم وقد استفادوا ممّا بين أيديهم من دروس وآليات وتحدّث هنا عن القياس خاصّة، متجاوزين ما توصل إليه السلف ليمثّلوا حلقة جديدة في تطوّر الدرس النحوي، يقول يونس بن حبيب في ابن أبي إسحاق أستاذه: "لو كان في الناس اليوم أحد لا يعلم إلّا علم ابن أبي إسحاق يومئذ لضحك منه ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ونظر نظره لكان أعلم الناس"<sup>(5)</sup>، وكأنّ هذا العلم التزمر مرده إلى العناية بوضع أسس علم النحو التي ظهرت مع ابن أبي إسحاق وأبي عمرو بن العلاء فقام علما معهما، فكان العلم نزر والفكر خصب.

أخذ يونس بن حبيب عن ابن أبي إسحاق والأخفش (ت177هـ)، وأخذ الرّؤاسي عن عيسى بن عمر، كما أخذنا عن أبي عمرو بن العلاء وعنه أخذ الخليل أيضا. وللرّؤاسي كتاب في الجمع والإفراد كما تذكر كتب التّراجم وكأنّه قد انتحى منحى أستاذه ابن عمر في التّأليف ولم يكتب لهذا المصنّف البقاء أيضا لكنّه مثل خطوة وبادرة تحوّل في الدرس النحوي كشفت عن درجة من التّضحج جعلت للرّؤاسي تلامذة لزموه حال الفراء قبل أن يتّصل بحلقة يونس في البصرة.

ومن أبرز أعلام هذا الطّور الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي ذاع صيته لتمتّعه بعقلية فذة مبدعة وهو الذي معه استقلّ علم النحو عن علم الفقه ليقوم علما بذاته في اللّغة من أجل اللّغة، "كما أجمع المترجمون على أنّه كان الغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليقه"<sup>(6)</sup>.

## 2- تطوّر الدرس النحوي مع الخليل

لَقِيَ الإعراب اهتماما بالغا من لَدُنِ النّحاة لعدّه الموجّه للمعاني والدّال عليها فانشغلوا به حتّى سمّاهم بعض المتأخّرين بنحاة الإعراب ولم تتوقّف هذه الجهود عند الأبواب الأولى منه من فاعليّة ومفعوليّة فقد تطوّر النحو مع نحاة هذا الطّور فنظروا في مواضع الكلام في حال دخول الحروف عليها وما يطرأ عليها من تغييرات على مستوى الإعراب والتّصريف والاشتقاق جميعا وهي أقسام الدرس النحوي التي رما دراستها في فكر الخليل.

## • الإعراب:

يُعدّ الإعراب المبحث الأكثر بحثاً في النحو العربيّ حتّى غُدّ النحو إعراباً، وقد عني نحاة الطّور الأوّل بالعمل في هذا الباب، وهو عمل يحتكم إلى ثنائية المؤثّر والأثر، أمّا الأثر فمعلوم في حركات وأواخر الكلم، وأمّا المؤثّر فلا يقصر أن يكون موضعاً أو لفظاً أو معنى لكنّ اللَّفظيّ هو المقدم عندهم كما تقدّم عند الخليل، لكنّ الخليل لم يفصل بين هذين الأخيرين ليظهرها في علاقة استلزام لا يعمل فيها اللَّفظ بمنأى عن المعنى، من ذلك دخول حروف الجرّ على المفاعيل، نحو: "حشّنتُ بصدّره فالصدّر في موضع نصب وقد عملت الباء. ومثله: {قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم} إنّما هي كفى الله، ولكنك لما أدخلت الباء عملت. والموضع موضع نصبٍ وفي معنى النَّصب. وهذا قول الخليل رحمه الله<sup>(7)</sup>. وفي باب المصادر "زعم الخليل رحمه الله أنّ قوله: هذا القول لا قولك، إنّما نصبه كنصب غير ما تقول، لأنّ "لا قولك" في ذلك المعنى ألا ترى أنّك تقول: هذا القول لا ما تقول، فهذا في موضع لا ما تقول"<sup>(8)</sup>، والحمل على الموضع هو إحدى العلل التي يعتلّ بها الخليل في تفسير الظواهر الإعرابيّة، من ذلك قول الشاعر:

هذا لعمركم الصّغار بعينه لا أمّ لي إن كان ذاك ولا أب

"فزعم الخليل رحمه الله أنّ هذا يجري على الموضع لا على [الحرف] الذي عمل في الاسم"<sup>(9)</sup>. ورد لفظ "أب" مرفوعاً لم ينتصب انتصاب "أم" الذي عمل فيه حرف النّهي "لا" وقد حمل الخليل الظّاهرة على الموضع وهو موضع الفاعليّة. يقول الخليل مفسّراً وممثّلاً لحالة الموضعيّة هذه بقوله: "يدلّك على أنّ لا رجل في موضع اسم مبتدأ مرفوع قولك: لا رجل أفضل منك، كأنّك قلت: زيد أفضل منك"<sup>(10)</sup>.

نجد أنّ الخليل كثير الاستعمال للفظ موضع حتى غدا مصطلحاً يحيل إلى الوظيفة النّحويّة للمكوّن في الجملة أو المحلّ الإعرابي فنجد عبارة "موضع النَّصب" في حديثه عن محلّ المفعوليّة الذي يعلّمه النَّصب إعرابياً كما في المثال: حشّنت بصدّره فالصدّر في موضع نصب وقد عملت الباء"<sup>(11)</sup>، وفي المثال: "هذا القول لا قولك، إنّما نصبه كنصب غير ما تقول لأنّ لا قولك في ذلك المعنى"<sup>(12)</sup>، فهذا مبرّر يجعل الخليل يعتمد الاشتراك المعنوي طريقاً ليحتما إعرابياً وفي الموضع ذاته. ومثال الانتصاب على المعاني قول لرجل من بني ساعده:

إنّ بها أكتل أو رزما خويرين ينقفان الهاما

فزعم أنّ خويرين انتصبا على الشتم ... كما انتصب حمالة الحطب. "والتأزilin بكلّ معترك" على المدح والتعظيم<sup>(13)</sup>.

ومن الأمثلة التي تبين جريان الألفاظ في إعرابها على الموضوع قول الشاعر<sup>(14)</sup>:

هذا لعمركم الصغار بعينه لا أمّ لي إن كان ذاك ولا أب

ومّا جاء مرتفعا على الموضوع أيضا قولهم "لا مال له قليل ولا كثير"<sup>(15)</sup>، و"لا رجل في موضع اسم مبتدأ مرفوع، قولك: لا رجل أفضل منك، كأنك قلت: زيد أفضل منك"<sup>(16)</sup> لتبين أنّ الحديث عن الموضوع هو حديث عن المحلّ الإعرابي في الجملة فيكون رفعا أو نصبا ثم تدخل الحروف لترفع المنصوب وتجرّه وتنصب المرفوع.

لا يتناول الخليل الظاهرة الإعرابية بشكل نظريّ مجرد فلا يتحدث مستندا إلى مصطلحات ثابتة فكان كثير الاستشهاد بالشعر وكلام العرب ليحلّ المثال في دروسه محلّ المصطلحات والمفاهيم، يقول الخليل متحدّثا عن الحال دون الحال محلاّ إعرابيا في المثال: "مررتُ برجلٍ حسنةٍ أمّه كريما أبوها"، زعم الخليل أنّه أخبر عن الحسن أنّه وجب لها في هذه الحال وهو كقولك: مررتُ برجلٍ ذاهبةً فرسُهُ مكسورا سرّجها"<sup>(17)</sup>.

ومن أمثلة الخليل ما لا يستعمل إنّما هي للتّمثيل فحسب، "زعم الخليل رحمه الله حيث مثل نصب وحده وخمستهم، أنّه كقولك: أفردتهم إفرادا. فهذا تمثيل. ولكنّه لم يستعمل في الكلام"<sup>(18)</sup>.

وقد أجاز الخليل القول: "ما أتاني غير زيدٍ وعمرو" بجرّ الاسم الأوّل ورفع الثاني وهما معطوفان "وذلك أنّ غير زيد في موضع إلّا زيدٌ وفي معناه، فحملوه على الموضوع"<sup>(19)</sup>. وقد برّر الخليل الأمر بالحمل على المعنى أيضا وهو توجّه نجد له صداه في آرائه فهو المقدّم عنده. وقد أجاز يونس هذا أيضا. وفي تأويل قول الأعشى:

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإنّا معشر نزل

قال الخليل: "الكلام ههنا على قولك يكون كذا أو يكون كذا، لما كان موضعهما لو قال فيه أتركبون لم ينقض المعنى، صار بمنزلة قولك ولا سابق شيئا... فجعله بمنزلة قول زهير: بدا لي أنّي لستُ مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا"<sup>(20)</sup>.

أولى الخليل أهمية كبرى لقرينة المعنى فكان المقدم عنده وكان كثير اللجوء إلى التمثيل المحسوس بغية التقريب فينطلق من مثال ينسج عليه أمثلة من ذلك محاولته تقرير أنّ ما يلي ألف الاستفهام لا يكون إلا منصوبا والسبب راجع في نظره إلى إضمار فعل هو ناصبه فقدم هذه السلسلة من الأمثلة في التدرج نحو هدفه:

أ. أعبد الله ضريته.

ب. أعبد الله كنت مثله.

ج. أزيدا لست مثله.

د. أزيدا لقيت أخاه.

ويشبهه الخليل عمل الحروف "أنّ، ولكنّ، وليت، ولعلّ، وكأنّ" فيما بعدها بعمل الفعل فيما بعده، "وزعم الخليل أنّها عملت عملين: الرفع والنصب، كما عملت كان الرفع والنصب حين قلت: كان أخاك زيداً. إلاّ أنّه ليس لك أن تقول كأنّ أخوك عبد الله، تريد كأنّ عبد الله أخوك، لأنّها لا تصرف تصرف الأفعال، ولا يضم فيها المرفوع كما يضم في كان. فمن تمّ فرقوا بينهما كما فرقوا بين ليس و ما، فلم يجروها مجراها، ولكن قيل هي بمنزلة الأفعال فيما بعدها وليست بأفعال"<sup>(21)</sup>. فالعمل في الأصل للأفعال والحروف محمولة عليها فلا تنمأهي معها في جميع أحوالها من ذلك الحذف والإضمار فيها. ومن الحروف العاملة "لا" في النفي وهي "لا تعمل إلاّ في نكرة من قبل أنّها جواب، فيما زعم الخليل رحمه الله"<sup>(22)</sup>. وفي حتّى يقول الخليل في المثال: سرث حتّى أدخلها، في معنى إلى أن أدخلها، "فالفعل إذا كان غاية نصب، والاسم إذا كان غاية جرّ"<sup>(23)</sup> وأجاز الخليل الرفع "تقول: سرث حتّى أدخلها، وقد سرث حتّى أدخلها سواءً، وكذلك إني سرث حتّى أدخلها"<sup>(24)</sup> وقد أجاز الخليل النصب في "سرت حتّى أدخلها إذا كنت محتقرا لسيرك الذي أذى إلى الدخول"، واستقبح الرفع وذلك أن "ليس في هذا اللفظ دليل على انقطاع السير كما يكون في النصب، يعني إذا احتقر السير، لأنك لا تجعله سيرا يؤدّي إلى الدخول وأنت تستصغره"<sup>(25)</sup>. وفي هذا النصّ نزعة نحو التقنين ظهرت مع الخليل سارع سبويه على ضوءها إلى التدوين للحفظ قبل الحديث عن نيّة التصنيف والتأليف.

وفي معمول الفاء أحجاز الخليل الرفع فقال في "ائتني فأحدثك" معللاً جواز الرفع، ذلك "أنتك لم ترد أن تجعل الإتيان سببا لحديث، ولكنك كأنك قلت: ائتني فأنا ممن يحدثك البتة، جئت أو لم تجيء. قال التابعه الديباني:

ولا زال قبر بين تبنى وجاسم عليه من الوسمي جود ووايل  
فينبث حودانا وعوفا منورا سأبعه من خير ما قال قائل<sup>(26)</sup>

من الحروف ما ينصب ويرفع نحو الحروف الخمسة ومنها ما يعمل النصب في ما يليها وتسمى هذه الألفاظ المتأثرة بفعل العمل معمولات ويتدخل المعنى في توجيه الإعراب واختيار أكثر من وجه في العمل فيرتفع ما بعد حتى وينتصب وكذلك الفاء إذا ما اضم بعدها حرف أو فعل يبرز حركة معمولها ومن الحروف ما يعمل الجزم وهي حروف الشرط والجزاء وقد يرتفع ما بين معموليها وهما الشرط والجزاء وقد يرتفع وفق ما يحتمل من تأويل وقد فسّر الخليل بعض الأمثلة الحاملة للاحتمالين فقال في المثال الأول وقد سكن:

متى تأتانا تلمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

"قال: تلمم بدل من الفعل [الأول]. ونظيره في الأسماء: مررت برجل عبد الله، فأراد أن يفسر الإتيان بالإمام كما فسّر الاسم الأول بالاسم الآخر"<sup>(27)</sup>، وفي تفسير الخليل للظاهرة الإعرابية انزياح واضح نحو المعنى وهو أساس قيام هذا العلم الذي قام لأجل بيان مقاصد الكلام فكانت الأمثلة لا تغيب عن تفاسير الخليل وتعليقاته، يقول سيبويه: "وسألته عن قوله جلّ وعزّ: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾ [الفرقان: 68-69] فقال: هذا كالأول، لأنّ مضاعفة العذاب هو لقي الآثام"<sup>(28)</sup>. وفي حال ارتفاع ما بين المجزومين سأل سيبويه الخليل "عن قوله: إن تأتني فتحدثني أحدثك، وإن تأتني وتحدثني أحدثك، فقال: هذا يجوز، والجزم الوجه"<sup>(29)</sup>. ومتى فارق معمول الحركة الإعرابية المنوطة به اعتلّ الخليل من العلل ما به يجد وجهها يفسره فينجزم جواب الشرط متى تضمّن معنى. حرف المجازاة في الشرط (الخليل). إن.

وينجزم الفعل إذا كان جوابا في الشرط بعمل إن الشرطية التي تعمل غائبة أيضا إذ لا يخلو شرط من معناها، "وزعم الخليل: أنّ هذه الأوائل كلّها فيها معنى إن، فلذلك انجزم الجواب، لأنّه إذا قال ائتني آتيك فإنّ معنى كلامه إن يكن منك إتيان آتيك"<sup>(30)</sup>.

وللحروف مواضع تحتلها ومعاني تؤدّيها وجدت في دروس الخليل اهتماما وهو ما سنقوم بتتبّعه في الجدول التالي.

المعنى الذي يؤدّيه	عمله الإعرابي	الحرف
ايصال الفعل بالمفعول. "خَشِنْتُ بصدْرِهِ فالصّدر في موضع نصب وقد عملت الباء". (ج1، ص92)	الجرّ	حرف الإضافة
التّفي، و"لا تعمل إلّا في نكرة من قبل أنّها جواب، فيما زعم الخليل رحمه الله في قوله: هل من عبدٍ أو جارية؟ فصار الجواب نكرة كما أنّه لا يقع هذه المسألة إلّا نكرة". (ج2، ص275)	التّصّب	لا التّافية
التّداء.	التّصّب في الاسم التّكرة والمضاف والرّفع في المفرد. "وزعم الخليل رحمه الله أنّهم نصبوا المضاف نحو يا عبد الله ويا أخانا، والتّكرة حين قالوا: يا رجلا صالحا حين طال الكلام، كما نصبوا: هو قبلك وهو بعدك. ورفعوا المفرد كما رفعوا قبل وبعد وموضعهما واحد، وذلك قولك: يا زيدُ ويا عمرُ و. وتركوا التّنوين في المفرد كما تركوه في قبل". (ج2، ص182.183)	يا
الاستثناء.	نصب المستثنى، "وزعم الخليل رحمه الله أنّهم إمّا حملهم على نصب هذا أنّ المستثنى إمّا وجهه عندهم أن يكون بدلا	إلّا

<p>ولا يكون مبدلاً منه، لأنَّ الاستثناء إنما حدّه أن تداركه بعدما تنفي فتبدله". (ج2، ص335)</p> <p>الغاية</p> <p>1- "وذلك قولك: سرْتُ حتى أدخلها، كأنتك قلت: سرْتُ إلى أن أدخلها". 2- سرْتُ حتى التهر.</p>	<p>حتى</p> <p>1- التّصب: إذا كان الفعل غاية. 2- الجرّ: إذا كان الاسم غاية. "فالفعل إذا كان غاية نصب، والاسم إذا كان غاية جرّ. وهذا قول الخليل". (ج3، ص17)</p>	
<p>1- الغاية: قلّما سرْتُ فأدخلها. 2- جعل الأول ليس سبباً للثاني: اتّني فأحدتُك. "وزعم الخليل: أنك لم ترد أن تجعل الإتيان سبباً لحديث، ولكنتك كأنتك قلت: اتّني فأنا ممن يحدثك البتّة، جئت أو لم تجئ". (ج3، ص36)</p>	<p>الفاء</p> <p>1- التّصب 2- الرّفع</p>	
<p>الاختيار بين شيئين أو أكثر: إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا / أو تنزلون فإننا معشر نزل. قال الخليل: "الكلام ههنا على قولك يكون كذا أو يكون كذا، لما كان موضعها لو قال فيه أتركبون لم ينقض المعنى، صار بمنزلة قولك: ولا سابق شيئاً". في قول زهير: بدا لي أيّ لستُ مدرك ما مضى / ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً. (ج3، ص50-51)</p>	<p>أو</p> <p>الرّفع</p>	

<p>حروف القسم: الواو، والباء والتاء.</p>	<p>الجزء: "قال الخليل: إنما تجيء هذه الحروف، لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به كما تضيف مررت به بالباء، إلا أن الفعل يجيء مضمرًا في هذا الباب، والحلف توكيد". (ج3، ص497)</p>	<p>والله لأفعلن. - بالله لأفعلن. - تالله لأكيدن أصنامكم.</p>
--	--	--

وليس العمل حكرا على الحروف وقد رأينا عمل الحروف الخمسة (التواسخ) فيما بعدها وماهي بحروف (القسم الثالث من أقسام الكلم) إذا علمنا أنّ الخليل ومن زامنه لم يولوا أهمية لضبط المفاهيم والمصطلحات.

من بين هذه الشذرات هنا وهناك عن فكر الخليل النحوي نجد عنايته بعمل الفعل ظاهرا ومضمرا، إذ هو رافع الفاعل وناصب المفعول مظهرا ومضمرا، من ذلك عمله التصب في الاسم الذي يلي ألف الاستفهام ، نحو: أعبد الله ضريته بإضمار ناصب الاسم. "ومثل ذلك: أعبد الله كنت مثله، لأن كنت فعل" والمثل مضاف إليه وهو منصوب. ومثله: أزيდა لست مثله، لأنه فعل، فصار بمنزلة قولك: أزيدا لقيت أحاه. وهو قول الخليل<sup>(31)</sup>. ولما ثبت الشكل النحوي لكلّ مكوّن في الجملة العربيّة بات من الممكن التّفطن إلى غياب عنصر من عناصرها وتقديره أو حذفه من المقام لعلّة من العلل.

أورد الخليل جملة من الأمثلة كما ساقها سيبويه تكشف عن حالات حذف الفعل وتقديره يكون فيها المنصوب هو الدال عليه وذلك طلبا للحقّة متى عهد الفعل أو استتقل في الكلام. وفي حذف الفعل وتقديره نستعين بالجدول التالي لمزيد التّمثّل لتفكير الخليل من خلال أمثله وتقديره للمحذوف.

تقدير الخليل	أمثلة في حذف الفعل
* "وقال الخليل: كأنك تحمله على ذلك المعنى: كأنك قلت: انتهوا خيرا لكم". قلت: انته وادخل فيما هو خير لك" (32).	{انتهوا خيرا لكم}.
* "ألا رجل، فهو متمنّ شيئا يسأله ويريده، فكأنه قال: اللهم اجعله زيدا أو عمرا، أو وفق لي زيدا أو عمرا" (33). * أي إياك أعني.	ألا رجلَ إمّا زيدا وإمّا عمرا يا أنت أو يا ثمّ تقول: إياك
* "وزعم الخليل رحمه الله حين مثله، إنّه بمنزلة رجلٍ رأيتُه قد سدّد سهمه فقلت: القرطاس، أي أصبت القرطاس، أي أنت عندي بمن سيصيبه" (34).	مرحبا، وأهلا عمرُك الله، وقعدك الله
* "قولك: عمرُك الله، وقعدك الله بمنزلة نشدك الله وإن لم يُتكلّم بنشدك الله، ولكن زعم الخليل أنّ هذا تمثيل بمثّل به" (35).	قال الشّاعر وهو طرفة بن العبد: أبا منذرٍ أفنيّت فاستبقِ بعضنا // حنانيك بعض الشرّ أهونٌ من بعضٍ.
"زعم الخليل رحمه الله أنّ معنى التّشبية أنّه أراد تحنّنا بعد تحنّ، كأنه قال: كلّما كنت في رحمة وخير منك فلا ينقطعنّ وليكن موصولا بآخر من رحمتك" (36).	ألا رجلا جزاه الله خيرا // يدلّ على محصّلة تبيّث.
"زعم الخليل أنّ نصب هذا على أنّك لم ترد أن تحدّث التّاس ولا من تخالط بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناء وتعظيما ونصبه على الفعل، كأنه قال: اذكر أهل ذاك، واذكر المقيمين، ولكنّه فعل لا يستعمل إظهاره" (38).	"والتّازلون بكلّ معترك والطّيبين".

اعتنى الخليل أيضا بالتراكيب النحويّة البسيطة في الجملة العربيّة من ذلك المركّب بالعطف، نحو: مُطَرْنَا الزَّرْعَ والضَّرْعَ على التّصَبِّ كما سمع الخليل عن العرب لأنّه مفعول ومن وجوه المعطوف عليه والعطف أن يردا مرفوعين إذا جريا على الاسم.

ولا يرى الخليل إمكانيّة أن تفارق الصّفة موصوفها في الجنس والعدد إلّا على الغلط وساق مثالا يصحّح فيه مذهبا للنّحاة لا يرى سيبويه من بأس في الأخذ به ، يقول الخليل مصحّحا: "لا يقولان إلّا هذان جحرا ضبّ خريان من قبل أنّ الضبّ واحد والجحر جحران، وإنّما يغلطون إذا كان الآخر بعدّة الأوّل وكان مذكرا مثله أو مؤنثا"<sup>(39)</sup>.

ومن وجوه التّعت / الصّفة أن يرد على المثال، {وأسرّوا التّجوى الّذين ظلموا}، "فعلى هذا المثال تجري الصّفات وكذلك شابّ وشيخ وكهل، إذا أردت شابّين وشيخين وكهلين تقول: مررت برجل كهل أصحابه، ومررت برجل شابّ أبواه"<sup>(40)</sup>. ولا يجوز الخليل وصف التّكرة بالمعرفة كما لا يجوز وصف المختلفين، "وذلك قولك: هذه ناقة وفصيلها الرّاتعان، ولا تستطيع أن تجعل بعضها نكرة وبعضها معرفة. وهذا قول الخليل رحمه الله"<sup>(41)</sup>. كما زعم الخليل "أنّ الجرّين أو الرّفعين إذا اختلفا فهما بمنزلة الجرّ والرّفيع، وذلك قولك: هذا رجل وفي الدّار آخر كريمين"<sup>(42)</sup>.

وكما يتعدّى العمل الأفعال تعدّتها ظاهرة الحذف والإضمار في الحروف والأسماء. من ذلك حذف الخبر في الاستفهام فللمستفهم أن يكتفي بأداة استفهام واسم، "وزعم الخليل رحمه الله أنّ رجلا لو قال: أتميمي، يريد "أنت" ويضمّرها لأصاب"<sup>(ج1، ص347)</sup>.

ومن مواضع الإضمار أيضا حذف الضّمائر كما في المثال "هذا عبد الله منطلق"، إذ قد يكون "منطلق" قد ارتفع لإضمار "هذا" أو "هو" قبله كما يرى الخليل، "وزعم الخليل رحمه الله أنّ رفعه يكون على وجهين: فوجه أنّك حين قلت: هذا عبد الله أضمرت هذا أو هو كأنّك قلت هذا منطلق أو هو منطلق. والوجه الآخر: أن تجعلهما جميعا خبرا لهذا، كقولك: هذا حلو حامض"<sup>(ج2، ص83)</sup>.

والخليل كثير الميل إلى التفسير في محاولة للتقريب بين المعاني وشرح ما غمض منها من ذلك شرحة لبيت وهو لعمر بن شأس:

وكائن رددا عنكم من مدجج يجيء أمام الألف يردي مقنعا

"قال الخليل رحمه الله كأنهم قالوا: له كالعهد درهما، وكالعهد من قرية. فهذا تمثيل وإن لم يتكلم به" (ج2، ص171) فالخليل يفسر بما لم يتكلم به فقط حتى يتضح المعنى وإن خالف الاستعمال وهو ما من شأنه أن يطرح تساؤلا حول كثرة استشهادات الخليل بما لم يستعمل في كلام العرب هل هي رغبته في الإيهام بصحة ما يذهب إليه أم أنّ المعنى قد شغله حتى بات مطلبه وإن تجاوز الاستعمال، أم أنّ طبيعة المرحلة هي التي دفعته إلى الاجتهاد ليحفظ للعربية ألفاظها وتراكيبها فلا تنعت بالشذوذ والغرابة؟، ولا غرابة أن تكون الإجابة: جميعها مجتمعة.

"وزعم الخليل أنّ حبذا بمنزلة حب الشيء، ولكنّ ذا وحبّ بمنزلة كلمة واحدة نحو لولا" يمكن أن نعتبر هذا المستوى من التفسير تفسيرا أوليا ثمّ يقول: "وهو اسم مرفوع كما تقول: يا ابن عمّ، فالعمّ مجرور"، ليصير التفسير مرفقا بالبرهنة فهو تفسير برهاني، ثمّ يقول: "ألا ترى أنّك تقول للمؤنث حبذا ولا تقول حبّده، لأنّه صار مع حبّ على ما ذكرت لك وصار المذكّر هو اللازم، لأنّه كالمثل" (ج2، ص180) ويمكن أن نعتبر هذا التفسير تفسيرا حجاجيا. وهذا التّمط من التفسير كثير الحضور عند الخليل ثمّ مع التّحاة من بعده فليس الخليل مجرّد ناقل لكلام العرب وإلا كان راوية لكنّه تفكّر في هذا الكلام الذي جمعه وأوجد له من التفسير ما به يصبح علما قابلا للملاحظة والوصف إلا أنّه لم يدوّن فدوّن تلميذه.

لما كان المعنى هو المقدم عندهم أولاه الخليل عناية هامة في تناوله لكلّ ظاهرة يدرسها وذلك يجعله الإعراب دليلا ومدلّلا عليها من ذلك رفعه آخر البيت وهو للأعشى:

لقد كان في حول ثواء ثويته تقضى لبانات ويسأم سائم

وقال في ذلك: "لا أعرف فيه غيره، لأنّ أول الكلام خبر وهو واجب. كأنّه قال: ففي حول تقضى لبانات ويسأم سائم. هذا معناه" (ج3، ص38). إذ ليس لتمثّل النّظام الّذي تسير وفقه اللّغة أن يجيد عمّا ذهب إليه وقد راعى المعنى.

### • التّصريف.

عني الخليل أيضا بباب التّصريف والاشتقاق في تشقّفات دروسه كما استفاد منها سيبويه من ذلك ما ينصرف وما لا ينصرف، يسوق سيبويه في هذا الباب بعض الأمثلة وينسبها إلى الخليل ويونس، يقول: "إذا سمّيت رجلا بإثمٍ لم تصرفه، لأنّه يشبه إضربٌ وإذا سمّيت رجلا بإصبعٍ لم تصرفه، لأنّه يشبه إصنع. وإذا سمّيت بأبلم لم تصرفه، لأنّه يشبه أقتل. ولا تحتاج في هذا إلى ما احتجت إليه في تُرثبٍ وأشباهها لأنّها ألفٌ" (ج3 ص197) وذلك أنّ هذه الأسماء أشبهت الأفعال فلم تنصرف وهي حجّة وقياس يتّبع.

ومّا لا ينصرف إضافة إلى ما أشبه وزنه الأفعال إذا كانت الزيادة في أوله مثال "غضبنا" وهو قول أبي عمرو والخليل ويونس، فقد اتّخذوا أمثلة صارت لهم منوالا يحتذى وهو أمر يكشف عن توجه نحو تعليم العربيّة من جهة خاصّة أمام المحاورات التي يجريها سيبويه مع أستاذه الخليل وما فيها من استدرار لكيفيّة النّطق السّليم والقول المستقيم وحفظ الفصيح من كلام العرب كما يكشف عن ضيق مجال السّماع والتّوجّه نحو التّقنين، ولعلّ هذا الحوار إلى جانب ما رأينا يقدّم صورة للمرحلة الانتقاليّة في تاريخ النّحو العربي من السّماع إلى التّقنين: "وسألته: عن رجل يسمّى: دهقان، فقال: إن سمّيته من التّدهقن فهو مصروف. وكذلك: شيطان إن أخذته من التّشيطان. فالنون عندنا في مثل هذا من نفس الحرف إذا كان له فعل يثبت فيه النّون. وإن جعلت دهقان من الدّهق، وشيطان من شيطّ لم تصرفه". (ج3، ص217 218)

تمثّل لجملة الأمثلة التي ساقها سيبويه مستفيدا من الخليل في الصّرف وامتناعه في الأسماء بالجدول التّالي:

ما ينصرف	الممتنع من الصِّرف
<p>- نحشل وتولب: اسمين، "مصروف حتى يجيء أمر بيته. وكذلك فعلت به العرب؟ لأنّ حال التاء والتون في الزيادة ليست كحال الألف والياء، لأنهما لم تكثرا في الكلام زائدتين ككثرتهما. فإن لم تقل ذلك عليك أن لا تصرف نحشلا [ونحسرا]. وهو قول العرب، والخليل ويونس." (ج3، ص197)</p> <p>- "إذا قلت اصليت صرفته لأنّه لا يشبه الأفعال فكذلك صرفت هذا لأنّ آخره لا يشبه آخر غضبان إذا صغرته. وهذا قول أبي عمرو والخليل ويونس." (ج3، ص217)</p>	<p>- أفعَل (صفة): "قال: لأنّ الصّفات أقرب إلى الأفعال، فاستنقلوا التّونين فيه كما استنقلوه في الأفعال، وأرادوا أن يكون في الاستنقال كالفعل، إذ كان مثله في البناء والزيادة وضارعه." (ج3، ص194)</p> <p>- أفعَل (اسما): لا ينصرف في المعرفة.</p> <p>- الأمثلة: ائْمُدْ، واصْبِعْ، وأبْلُمْ لأنّها أشبهت الأفعال: اِضْرِبْ، واصْنَعْ، وأقْتُلْ.</p> <p>- ما آخره كآخر غضبان.</p> <p>- ما كان على مثال الفعل إذا كانت الزيادة في أوله.</p>
<p>- رجل يسمّى "دهقان": "إن سمّيته من التّدهقن فهو مصروف وكذلك شيطان إذا أخذته من التّشيطن... وإذا جعلت دهقان من الدّهق وشيطان من شيط لم تصرفه" (ج3، ص218)</p> <p>- رجلٌ يسمّى مرّانا.</p> <p>- رجل يسمّى فينانا "فقال: مصروف: لأنّه فيعال<sup>(43)</sup>".</p>	<p>- رمان، يقول الخليل: "لا أصرفه، وأحمه على الأكثر إذا لم يكن له معنى يُعرف." (ج3، ص218)</p> <p>- أُخَرَ: لا ينصرف في معرفة ولا نكرة. "لأنّ أُخَرَ خالفت أحواتها وأصلها، وإما هي بمنزلة: الطُول والوَسَط والكُبْر، لا يَكُنّ صفةً إلّا وفيهنّ ألف ولام، فتوصفُ بمنّ المعرفة" (ج3، ص224)</p>
<p>- ديوان "فقال بمنزلة قيراط".</p> <p>- لفظي سعدان والمرجان، "وسألته عن سعدان والمرجان، فقال: لا أشكّ في أنّ هذه التّون زائدة، لأنّه ليس في الكلام مثل: سرداح ولا فعال إلّا مضعفا. وتفسيره كتفسير عريان، وقصّته كقصّته" (ج3، ص218)</p> <p>- جُمِعْ وكُنِعْ في النّكرة.</p>	<p>- أحاد [وثناء] ومثنى وثلاث ورباع "قال هو بمنزلة، أحر، إمّا حدّه واحدا واحدا، واثنين اثنين، فجاء محدودا عن وجهه فتركّ صرفه." (ج3، ص225)، كما لا ينصرف في النّكرة، "وقال لي: قال أبو عمرو: "أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع صفة كأنك قلت: أولي أجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة." (ج3، ص225)</p>

- عمرٌ، "إن قلتَ عمرَ آخرِ صرفته، لأنَّه نكرةٌ فتحوّل عن موضعِ عامرِ معرفة، وإن حقرته صرفته لأنَّ فُعَيْلا لا يَقَعُ في كلامهم محدودا من فُعَيْعِلٍ وأشباهه، كما لم يَقَعِ فُعَلٌ نكرةً محدودا من عامر، فصار تحقيره كتحقيرِ عمرو، كما صارت نكرته كصردِ وأشباهه. وهذا قول الخليل" (ج3، ص224).

- صُعْرٌ من قوله الصغرى في المعرفة.

- ثمانٍ، "قلتُ: فما بال ثَمَانٍ لم يشبهه: صحاري وغازي؟ فقال: الباء في ثماني ياء الإضافة أدخلتها على فَعَالٍ، كما أدخلتها على يَمَانٍ وشَامٍ، فصرفت الاسم إذ حَقَفْتِ كما صرفته إذ ثَقَلْتِ يَمَانِيَّ وشَامِيَّ. وكذلك: رَبَاعٍ فَإِذَا أَلْحَقْتِ هذه الأسماء ياءات الإضافة". (ج3، ص228)

- صَيَاقِلَةٌ وأشباهها. "من قَبِلَ أَنَّ هذه الهاء إِثْمًا ضُمَّتْ إلى صَيَاقِلَ، كما ضُمَّتْ موت إلى حضر..". (ج3، ص228)

- جَوَارٍ: اسم امرأة.

- قَاضٍ: اسم امرأة، "قال: مصروفة في حال الرفع والجرّ، تصير هاهنا بمنزلتها إذا كانت في مَفَاعِلٍ وَفَوَاعِلٍ". (ج3، ص311)

- رَجُلٌ يَسْمَى يرمي أو أرمي، "قال: أنونّه، لأنَّه صار اسما فهو بمنزلة قاضي إذا كان اسم امرأة". (ج3، ص312)

## ● الاشتقاق.

إلى جانب الانصراف في الأسماء وامتناعها فقد شهد الجانب الاشتقاقي حضورا ملفتا في كتاب سيبويه نقلا عن الخليل.

أما في التصغير أو التحقير وهما مصطلحان يتعاقبان في الكتاب لأداء نفس المعنى وهو اشتقاق تصغير للأسماء، وتتبع أبواب الكتاب كما نظمها سيبويه سننظر في تصغير الأسماء تراتيبا وسنبدأ بالاسم الثلاثي وكيفية تصغير الخليل له وعلة في ذلك.

يقول سيبويه: "سألته عن رجل يسمّى أعمى فقلت: كيف تصنع به إذا حقرته؟ فقال: أقول: أعمم". (ج3، ص311)، لم يقدم الخليل مثال التصغير للثلاثي لكنه قدم مثلا يمكن أن يتخذ ويتخذ مثلا للثلاثي وهو ما بادر تلميذه إلى استخلاصه من جملة الأمثلة لذلك يكثر في الكتاب الحوار الثنائي بين التلميذ وأستاذه يقلبان فيه مختلف الألفاظ ومؤلفها وعلى ضوء هذا نشأت النظرية التحويلية وقد تحولت الأمثلة المطروحة إلى أمثلة يقاس عليها وتتبع.

تأتي صيغة التحقير في الأمثلة التالية على النحو التالي:

. مُعْتَلِمٌ: مُعْتَلِمٌ / مُعْتَلِمٌ<sup>(44)</sup>

. جَوْلِقٌ: جَوْلِقٌ / جَوْلِقٌ.

. الْمُقَدِّمٌ: مُقَدِّمٌ / مُقَدِّمٌ.

. الْمُؤَخَّرُ: مُؤَخَّرٌ / مُؤَخَّرٌ<sup>(45)</sup>.

. عَثُولٌ: عَثِيلٌ / عَثِيلٌ، ج. عَثَاوِلٌ / عَثَاوِلٌ<sup>(46)</sup>.

. مَرْمَرِيْسٌ: مَرْمَرِيْسٌ.

. فُلُنْسُوَةٌ: فُلُنْسِيَّةٌ / فُلُنْسِيَّةٌ.

. تحقير رجل يسمّى قبائل: فُبَيْعِلٌ / فُبَيْعِلٌ<sup>(47)</sup>.

. عَنَتْرِيْسٌ: عَنَتْرِيْسٌ<sup>(48)</sup>.

. سَفْرَجَالٌ: سَفْرِيَجٌ (فَعِيْعِلٌ) / سَفْرِيَجٌ.

. خَافٌ / مَالٌ<sup>(49)</sup>.

. حَضْرَ مَوْتٍ، بَعْلَبَكٌ، حَمْسَةَ عَشَرَ: حُضَيْرَ مَوْتٍ، بُعَيْلَبَكٌ، حُمَيْسَةَ عَشَرَ<sup>(50)</sup>.

وهذه الأمثلة صارت أمثلة أو صيغا تتبّع وينسج على منوالها. وفي باب الترخيم يرى الخليل حذف الحروف الزائدة وأن يصعّر الاسم على حروفه الأصول فيُرخّم تصغير الثلاثي على مثال "فُعَيْل"، ويرخّم تصغير الرباعي على مثال "فُعَيْل" كما استنتج سيبويه من أمثلة الخليل، يقول: "اعلم أنّ كلّ شيء زيد في بنات الثلاثة فهو يجوز لك أن تحذفه في الترخيم، حتّى تصير الكلمة على ثلاثة أحرف لأنّها زائدة فيها، وتكون على مثال فُعَيْل. وذلك قولك في حارث: حُرَيْثٌ، وفي أسود: سُؤَيْدٌ، وفي غلاب: عُليّة. وزعم الخليل أنّه يجوز أيضا في ضفندد: ضَفَيْدٌ، وفي خفّيد: خَفَيْدٌ، وفي مُقَعْنَسِسٍ: قُعَيْس. وكذلك كلّ شيء كان أصله الثلاثة. وبنات الأربعة في الترخيم بمنزلة بنات الثلاثة تحذف الزوائد حتّى يصير الحرف على أربعة لا زائدة فيه، ويكون على مثال فُعَيْل، لأنّه ليس فيه زيادة: وزعم أنّه سمع في إبراهيم واسماعيل: بُرَيْهٌ وَسُمَيْعٌ"<sup>(51)</sup>. إذ اعتماد الخليل على السماع من العرب كيف تكلمت واعتماد سيبويه على الجمع ووضع الأمثلة لكلام العرب في عمليّة لتطوير الدرس النحوي.

ومن الأسماء ما يرد مصعّرا استصغارا منهم للشّيء من ذلك "كُمَيْتٌ"، وقد قال الخليل: "فإنّما حثروها لأنّها بين السّواد والحُمْرة ولم يخلص أن يقال له أسود ولا أحمر وهو منهما قريب، وإنّما هو كقولك: هو دُوَيْنَ ذَلِكَ"<sup>(52)</sup>. ولا تصعّر الأفعال لاختصاص الأسماء بالتصغير وهو رأي الخليل، يقول سيبويه: "سألت الخليل عن قول العرب: ما أميلحه. فقال: لم يكن ينبغي أن يكون في القياس، لأنّ الفعل لا يُحَثّر، وإنّما تحثّر الأسماء لأنّها توصف بما يعظم ويهون"<sup>(53)</sup>، وهو ما استقره الخليل من كلام العرب.

وُجُحّر المؤنث على أمثلة وفي ذلك ساق سيبويه حوارا دار بينه والليل يطرح فيه سيبويه جملة من التّساؤلات حول بعض الصّيغ والليل يجيبه فاتخذ شكلا تعليليا وكأنّ العرب قد تكلمت وفق نظام مستبطن فلم يكن شيء من اللّغة اعتبارا من وجهة نظره فقد فهموا وعلى قدر حاجتهم تكلموا وقام في أدمغتهم علله على مذهب الخليل.

يصاغ تصغير المؤنث بإضافة هاء التّأنيث للمذكّر منه، نحو: قدّم/ قُدَيْمَةٌ، أما عن مثل عناق وهي تعني التّصغير، يقول الخليل معلّلا مجيئها على هذه الحال المفارقة للقياس: "استثقلوا الهاء حين كثر العدد، فصارت القاف بمنزلة الهاء، فصارت فُعَيْلَةٌ في العدد والرّنة

فاستقلوا الهاء. وكذلك جميع ما كان على أربعة أحرفٍ فصاعداً<sup>(54)</sup>. وقال في "سُمِّيَّة" تصغير سماء وقد خالفت بنات الأربعة أحرف: "قال: من قَبِلَ أُمَّهَا تُحَدِّثُ فِي التَّحْقِيرِ فيصير تحقيرها كتحقير ما كان على ثلاثة أحرف، فلما خفَّت صارت بمنزلة دلو، كأنك حثرت شيئاً على ثلاثة أحرف"<sup>(55)</sup>. وحثروا "حبارى" على "حُبَيْرَةٌ" واعتلَّ الخليل لذلك بقوله: "لما كانت فيه علامة التأنيث ثابتة أرادوا أن لا يفارقها ذلك في التحقير، وصاروا كأنهم حثروا حبارة"<sup>(56)</sup>، وفي تحقير "نَصَفٍ" نعت لامرأة، قال: "تحقيرها نُصَيْفٌ، وذلك لأنَّه مذكَّرٌ وُصِفَ به مؤنَّث"<sup>(57)</sup>، وفي تحقير النَّابِ من الابل قال "نَيْبٌ"، يقول: "الأهم جعلوا النَّابَ الذَّكَرَ اسماً لها حين طال نائماً"<sup>(58)</sup>، وزعم أنَّ تصغير حَجَرٍ اسم امرأة "حُجَيْرَةٌ"، "لأنَّ حجر قد صار اسماً لها علماً وصار خالصاً، وليس بصفة ولا اسماً شاركت فيه مذكراً على معنى واحد"<sup>(59)</sup>.

وتقول العرب "أَصِيلَانٌ"، و"عُشَيَّانَاتٌ"، و"مُعَيَّبَانَاتٌ"، قال الخليل: "جعل الحين أجزاءً، لأنَّه حينٌ كلِّما تصوَّبت فيه الشَّمْسُ ذهبَ منه جزءٌ"<sup>(60)</sup>.

وتحقَّر الأسماء المبهمة في استعمال العرب وقد أشار الخليل إلى ذلك معللاً بمجيء ياء التصغير ثانية في "ذا"، يقول: "هي في الأصل ثالثة، ولكنهم حذفوا الياء حين اجتمعت الياءات. وإنما حذفوها من ذبيباً. وأما تيتاً فإنما هي تحقير تاء، وقد استعمل ذلك في الكلام"<sup>(61)</sup>.

وفي تصغير أبنية أدنى العدد وهي كما ساقها سيبويه أَفْعَلٌ، وَأَفْعَالٌ، وَأَفْعَلَةٌ، وَفِعْلَةٌ، يقول الخليل وقد أرسى قاعدة تُتَّبَعُ: "أردّه إلى بناء أقلّ العدد، لأنيّ إنّما أريد تقليل العدد فإذا أردتُ أن أقلله وأحقره صرت إلى بناء الأقلّ، وذلك قولك: أُدَيْتُرُ، فإن لم تفعل فحقرها على الواحد وألحق تاء الجمع، وذلك لأنك تردّه إلى الاسم الذي هو لأقلّ العدد"<sup>(62)</sup>. وهو باتباعه هذا المنهج في قياس أبنية أدنى العدد قد انتقل من الوصف إلى التتبعيد لذلك فإنَّ بعض الباحثين يرى أنّه من الصَّعب التفرقة بين سيبويه وأستاذه في الدِّراسة فقد بنى أسس هذه النَّظَرِيَّةِ في شكل تكاملي يصعب معه عدُّ الخليل مجرِّد واصف للغة لا تتنازع الرغبة في التتبعيد وقد علَّل كلَّ ظاهرة في اللغة ممَّا يجعل اللغة من وجهة نظره نظاماً متناسقاً لا يشذ فيه استعمال عن استبطان لعلَّة سيره على منحى دون سواه.

ومن المباحث التي خاضها الخليل ونقلها سيويه عنه القول في التثنية والجمع ولعلَّ سيويه لم يعد إلى الخليل فيها في جميع وجوهها إذ يسجّل الخليل حضوره في البعض منها فقط كشاهد يوظّفه سيويه.

يسوق سيويه في معرض حديثه عن تثنية "ما كان من المنقوص على ثلاثة أحرف"، قولا للخليل يؤيّد ما يذهب إليه في هذا الباب وهو أنّ تثنية المنقوص تقوم على بيان أصل الألف برسم الواو أو الياء في حال التثنية، يقول سيويه: "سألت الخليل عن العشا الذي في العينين فقال: عَشَوَانِ، لأنّه من الواو، غير أنّهم قد يُلزمونَ بعض ما يكون من بنات الواو انتصاب الألف ولا يجيزونَ الإمالة تخفيفا للواو"<sup>(63)</sup>. ويكتفي سيويه بنقل هذا عن الخليل في هذا الباب إلاّ أنّه يكشف عن فكر الخليل النَّحوي وقد خطا أشواطاً في الدرس النَّحوي وقد انتظم كلام العرب في فكره بشكل واضح مكّنه من التعليل وهو الأمر الذي ميّزه وجعله شاهد سيويه القويّ.

وفي ومضة أخرى يقول الخليل في تثنية الممدود، وقد سأله سيويه في ما شدّد عن النَّسق، "عن قولهم: عقلته بِنَنَائِيْنِ وَهِنَائِيْنِ، لمْ لمْ يهمزوا؟ فقال: تركوا ذلك حيث لم يُفرد الواحد ثمّ بينوا عليه، فهذا بمنزلة السّماوة، لما لم يكن لها جمعٌ كالعظاء والعباء يجيء عليه جاء على الأصل"<sup>(64)</sup>. ذلك أنّ الممدود يثنّى على لفظه ويجمع بإضافة الواو والنون فلما لم يكن لهذين اللَّفظين من أفراد في الاستعمال جاء على لفظهما المستعمل كما علّل الخليل وكما تكلمت العرب إذ القياس لا يتعدّى السّماع فما سُمِعَ من العرب يبقى على لفظه لا يتجاوز الخليل ولا يُجوّزه وهو ما سرى بين نحاة طبقتة والدرس النَّحوي في الحقب اللاحقة.

وفي الجمع تحدّث الخليل عن الجمع السّالم وجمع التّكسير مستعملا هذه المصطلحات التي بقيت حتّى اليوم، يقول سيويه: "سألت الخليل عن قولهم: الأشعرون، فقال: إنّما ألحقوا الواو والنون، كما كسروا، فقالوا: الأشاعِرَ، والأشاعِثَ، والمسامِعةَ فكما كسروا مسمعا والأشعثَ حين أرادوا بني مسمع وبني الأشعثَ، ألحقوا الواو والنون"<sup>(65)</sup>، وقال في مفرد التّصاري: "نصريّ، ونصران، كما قالوا: ندمان وندامي، وفي مهريّ مهاري. وإنّما شبّهوا هذا ببخاتيّ، ولكنّهم حذفوا إحدى الياءين كما حذفوا في أثفيّة، وأبدلوا مكانها ألفا، كما قالوا صحاري"<sup>(66)</sup>.

يقول سيبويه في وجه آخر من وجوه الجمع وهو جمع أسماء الرجال والنساء "وسألته عن رجل يسمّى بابن فقال: إن جمعت بالواو والتون قلت: بُتُون كما قلت قبل ذلك، وإن شئت كسّرت فقلت: أبناء"<sup>(67)</sup>. وجمع المؤنث بالألف والتاء فقال في جمع امرأة تسمى بأمّ "أمّهات، وأمّاتٌ في لغة من قال: أمّاتٌ"<sup>(68)</sup>، والجمع على هذه الطريقة هو حاصلة معايشة الأعراب وما نهجوا على التكلّم به فيتأديتهم لهذا المعنى، يقول سيبويه: "سألت الخليل، عن أبٍ فقال: إن ألحقت به التون والزيادة التي قبلها قلت: أبون، وكذلك أخت تقول: أخون، لا تغيّر البناء، إلا أن تحدث العرب شيئا، كما تقول: دمون"<sup>(69)</sup>، لتحافظ الأبنية على وضعها الأول في تأديتها للمعاني التي استدعتها وهو جانب سماعيّ يحفظ ولا يقاس عليه.

وفي معرض حديثه عن جمع ما كان على حرفين يتعثر سيبويه ببعض الأبنية التي خالفت القياس في جمعها فيعود إلى الخليل ليكون للظاهرة معلّلا، يقول سيبويه: "وسألت الخليل عن قول العرب: أرض وأرضات؟ فقال: لما كانت مؤنثة وجمعت بالتاء نُقلت كما نُقلت طلحات وصحفات. قلت: فلم جمعت بالواو والتون؟ قال: شبّهت بالسنتين ونحوها من بنات الحرفين لأنّها مؤنثة كما أنّ سنة مؤنثة، ولأنّ الجمع بالتاء أقلّ والجمع بالواو والتون أعمّ. ولم يقولوا: آراض ولا أرض فيجمعونه كما جمعوا فعلاً. قلت: فهلا قالوا: أرضون كما قالوا: أهلون؟ قال: إنّها لما كانت تدخلها التاء أرادوا أن يجمعوها بالواو والتون كما جمعوها بالتاء، وأهل مدكر لا تدخله التاء ولا تغيّره الواو والتون كما لا تغيّره غيره من المدكر، نحو: صعب وفسل"<sup>(70)</sup>. ولعلّ حجج النحاة كما يصفها بعض الباحثين مثل جحر اليربوع متى سددت له بابا خرج من آخر وعلل الخليل لا تنفذ. وفي "باب ما كان من الأعجمية على أربعة أحرف وقد أعرب فكسرتة على مثال مفاعل" كما عنونه سيبويه، "زعم الخليل أنّهم يلحقون جمعه الهاء إلا قليلا. وكذلك وجدوا أكثره فيما زعم الخليل. وذلك: مؤزج وموازجة"<sup>(71)</sup>.

ومن الجمع ما لا واحد له من لفظه نحو ركب وسفر كما أورد سيبويه "وزعم الخليل أنّ مثل ذلك الكمأة، وكذلك الجبأة، ولم يُكسر عليه كمء"<sup>(72)</sup>.

وفي تفسير ما جاء من الصفات على أربعة حروف، "زعم الخليل أنّ قولهم: ظريف وظروف لم يُكسر على ظريف، كما أنّ مذاكير لم تكسر على ذكر"<sup>(73)</sup>، وذهب أبو عمر

إلى خلاف ذلك فقال: "أقول في ظروف هو جمع ظرف، كسّر على غير بنائه وليس مثل مذاكير. والدليل على ذلك أنك إذا صغرت قلت: ظُرَيْمُونَ، ولا تقول ذلك في مذاكير"<sup>(74)</sup> ونقل السيرافي عنه قوله في حاشية الكتاب: "ظروف جمع لظريف وإن كان الباب في ظرف أن لا يجمع على ظروف، كما أنّ كثيرا من الجموع قد خرجت من بابها حملا على غيرها"<sup>(75)</sup>.

يكشف هذا الاختلاف بين النّحاة عن نضج في التفكير النّحوي بالتوجّه نحو ردّ الظواهر إلى قواعد أو استعمالات تماثلها وتشاكلها وهو ما من شأنه أن يجعل اللّغة تتصف بالانتظام وهو أمر ثابت عند الخليل وعند غيره ممّن عاصره من النّحاة ومثال هذا الجمع خير شاهد عن النّقلة في الدرس النّحوي من السّماع إلى القياس والتّمحيص فلئن ردّ الخليل "ظروف" إلى "ظريف" كما يحكم بذلك القياس، إلّا أنّ الجرمي أنكر ذلك، بالعودة إلى تصغير اللفظ وهي آلية كشفت له مخالفة "ظروف" لـ "مذاكير" فأبطل القياس عليه وعدّ جمعه خروجا عن الباب.

وفي إطار نفس التّوجه وهو ردّ الظاهرة إلى مثيلاتها نجد الخليل شديد الحماس من خلال أمثله إلى تكوين مجموعات تضمّ ظواهر متماثلة يجمع بينها رابط يبعدها عن التّشّت ويسهل تناولها وما ذلك إلّا في إطار مشروع أكبر وهو حفظ اللّغة من التّشّت بإخضاعها لنظام يراه الخليل موجودا لكن لا بدّ من إظهاره باعتباره كامنا في عقول متكلميها، يقول في ذلك مستدركا بعض المصادر التي خالفت القياس معلّلا خروجها عن النّظام: "إنّما قالوا: مرضى وهلكى وموتى وجرى وأشباه ذلك لأنّ ذلك أمر يُبتلون به، وأدخلوا فيه وهم له كارهون وأصيبوا به، فلمّا كان المعنى معنى المفعول كسّروه على هذا المعنى"<sup>(76)</sup>، فقد كان لعامل المعنى أن يحمل القوم على الجمع على هذا التّمط المخالف للقياس، لكنهم قالوا أيضا "هلاّك وهالكون، فجاءوا به على قياس هذا الباب وعلى الأصل، فلم يكسّروه على المعنى إذ كان بمنزلة جالس في البناء وفي الفعل. وهو على هذا أكثر في الكلام"<sup>(77)</sup>، ليطمئنّ الخليل إلى عمل القياس في اللّغة وأنّها ذات انتظام في هذا الباب على سبيل المثال ذلك أنّه شديد الاعتراف والخضوع للجانب السّماعي الذي لا يعمل القياس فيه.

عني الخليل باللّغة وهو شديد الروع بالسماع كما ذكرنا فأنشأ معجم العين كما عني بالقراءات فكان كثير الشرح للآيات القرآنية على ضوءها، كما عني بالحروف ومخارجها عناية خاصة فانصرف إليها حتى أبدع علما لم يسبقه إليه أحد وهو علم العروض.

وليس العروض من النحو في شيء لكنّه يقدّم رؤية خاصة للخليل ساعدته على تجاوز الظاهرة التركيبية إلى الغوص في تفصلات اللّغة والبحث في دقائقها فكان الخليل أول معلّل للشكل الكتابي كما ذكر السيرافي في حاشية كتاب سيبويه وذلك في معرض حديثه عن خصائص حروف الوقف: الواو، والياء، والألف، يقول: "هذه الحروف غير مهموسات: وهي حروف لين ومدّ، ومخارجها متّسعة لهواء الصّوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمدّ للصّوت... وزعم الخليل أنّهم لذلك قالوا: ظلّموا ورموا، فكتبوا بعد الواو ألفاً" (78). ولعلّ هذا الاهتمام بدقائق اللّغة مرجعه إلى حدّة ذكاء الخليل كما يصفه المترجمون وقد وظّف ما أوتي من ذكاء في تحليل ظواهر اللّغة فكان الفاتح لباب التعليل على مصراعيه.

#### خاتمة:

توقفنا في هذا العمل عند فكر خصب وعلم غزير كانا سببا في عدّ الخليل أبرز المسهمين في تطوير الدرس النحوي وقد تتبّعنا ذلك من خلال حضوره الكثيف في الكتاب. عرّجنا في بحثنا على جملة من النّحاة كان على رأسهم أبو الأسود الدؤلي في سلسلة انتهت إلى الخليل الأستاذ المباشر لسيبويه، فكان لكلّ طور مسحته ولكلّ نحويّ إضافته لننتهي إلى الخليل وما أسهم به في تطوير الدرس النحوي، ولنخلص في هذا العمل إلى ملاحظة هامة في تاريخ النّحو العربي، وهي أنّ الخليل قد جمع بين مرحلتين في تاريخ النّحو العربي وهو ما دعانا إلى عدّه الفاصل الواصل بين المشافهة والتدوين وبين النّشأة والتشكّل وقد أحدث نقلة في تاريخ النّحو العربي تدعونا إلى الإشادة بعبقريّة هذا الرّجل وفكره كما فعل كلّ من عرف فضله في تطوير الدرس النحوي وظهور النّظرية النّحويّة العربيّة التي تجلّت في الكتاب انطلاقا من تلك الشّدرات والمؤشّرات والمصطلحات التي احتضنتها مرحلة المشافهة وكان للخليل النّصيب الأوفر منها كما تجلّى ذلك في الكتاب.

## الهوامش والإحالات

- (1) - القياس التّحوي بين مدرستي البصرة والكوفة، ص 99.
- (2) - الخلاف التّحوي بين البصريين والكوفيين، ص 14 . 15.
- (3) - المدارس التّحوّية، ص 27.
- (4) - مجالس العلماء، ص 242 . 243.
- (5) - في أصول التّحو، ص 83 . 84.
- (6) - القياس في التّحو، ص 76.
- (7) - سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 92.
- (8) - الكتاب، ج 1، ص 378.
- (9) - الكتاب، ج 2، ص 291.
- (10) - الكتاب، ج 2، ص 293.
- (11) - الكتاب، ج 1، ص 92.
- (12) - الكتاب، ج 1، ص 378.
- (13) - الكتاب، ج 2، ص 149-150.
- (14) - الكتاب، ج 2، ص 292.
- (15) - الكتاب، ج 1، ص 292.
- (16) - الكتاب، ج 2، ص 293.
- (17) - الكتاب، ج 2، ص 92.
- (18) - الكتاب، ج 1، ص 374.
- (19) - الكتاب، ج 2، ص 344.
- (20) - الكتاب، ج 3، ص 50 . 51.
- (21) - الكتاب، ج 2، ص 131.
- (22) - الكتاب، ج 2، ص 275.
- (23) - الكتاب، ج 3، ص 17.

- (24) – الكتاب، ج 3، ص 20.
- (25) – الكتاب، ج 3، ص 22 23.
- (26) – الكتاب، ج 3، ص 36 37.
- (27) – الكتاب، ج 3، ص 86.
- (28) – الكتاب، ج 3، ص 87.
- (29) – الكتاب، ج 3، ص 88.
- (30) – الكتاب، ج 3، ص 94.
- (31) – الكتاب، ج 1، ص 102.
- (32) – الكتاب: ج 1، ص 283.
- (33) – الكتاب، ج 1، ص 286.
- (34) – الكتاب، ج 1، ص 295.
- (35) – الكتاب، ج 1، ص 323.
- (36) – الكتاب، ج 1، ص 348 349.
- (37) – الكتاب، ج 2، ص 308.
- (38) – الكتاب، ج 2، ص 65 66.
- (39) – الكتاب، ج 1، ص 437.
- (40) – الكتاب، ج 2، ص 41.
- (41) – الكتاب، ج 2، ص 59.
- (42) – الكتاب، ج 2، ص 59.
- (<sup>g</sup>) – التحوّل من الأمثلة المتفرّقة إلى جمعها تحت مثال.
- (43) – الياء عوض ممّا حذف، "والعوض قول يونس والخليل"، ج 3، ص 426
- (44) – "فإذا لم يكن ذا فيما هو بمنزلة التّصغير في أنّ ثالته حرف لين كما أنّ ثالث التّصغير حرف لين وما قبل حرف لينه مفتوح كما أنّ ما قبل حرف لين التّصغير مفتوح، وما بعد حرف لينه مكسور كما كان ما بعد حرف لين التّصغير مكسورا. فكذلك لا يكون في التّصغير. فعلى هذا فقس. وهذا قول الخليل". ج 3، ص 426.

- (45) - "إنما صارت الواو تثبت في الجمع والتحقير لأنهم إنما جاؤوا بهذه الواو لئلحق بنات الثلاثة بالأربعة فصارت عندهم كشين قرشب، وصارت آلام الزائدة بمنزلة الباء الزائدة في قرشب، فحذفتها كما حذفوا الباء حين قالوا: قرشب، فحذفوا ماهو بمنزلة الباء وأثبتوا ماهو بمنزلة الشين. وكذلك قول العرب وقول الخليل"، ج 3، ص 430.
- (46) - "الألف أولى بالصرح من الهمزة، لأنها كلمة حيّة لم تجحى للمد، وإنما هي بمنزلة جيم مساجد وهمزة ثرائل... والألف بمنزلة ألف عذافر. وهذا قول الخليل. وأما يونس فيقول: قُبَيْلٌ بحذف الهمزة إذ كانت زائدة. كما حذفوا ياء قراسية وياء عفارية". ج 3، ص 439.
- (47) - "وزعم الخليل: أنّ التّون زائدة، لأنّ العنتريس الشديد، والعترسة الأخذ بالشدّة، فاستدلّ بالمعنى"، ج 3، ص 445.
- (48) - "سألت الخليل عن خاف والمال في التّحقير فقال: خاف يصلح أن يكون فاعلا ذهب عينه وأن يكون فعلا، فعلى أيهما حملته لم يكن إلا بالواو... وأما مال فإنه فعّل، لأنهم لم يقولوا: مائل. ونظائره في الكلام كثيرة فاحمله على أسهل الوجهين". ج 3، ص 462.
- (49) - "زعم الخليل أنّ التّحقير إنّما يكون في الصّدر، لأنّ الصّدر عندهم بمنزلة المضاف والآخر بمنزلة المضاف إليه، إذ كانا شيئين"، ج 3، ص 475.
- (50) - الكتاب، ج 3، ص 476.
- (51) - الكتاب، ج 3، ص 477.
- (52) - الكتاب، ج 3، ص 477. 478.
- (53) - الكتاب، ج 3، ص 481.
- (54) - الكتاب، ج 3، ص 481. 482.
- (55) - الكتاب، ج 3، ص 482.
- (56) - الكتاب، ج 3، ص 482.
- (57) - الكتاب، ج 3، ص 483.
- (58) - الكتاب، ج 3، ص 483.
- (59) - الكتاب، ج 3، ص 484.
- (60) - الكتاب، ج 3، ص 487.
- (61) - الكتاب، ج 3، ص 490. 491.

- (62) – الكتاب، ج 3، ص 387.
- (63) – الكتاب، ج 3، ص 391.
- (64) – الكتاب، ج 3، ص 410.
- (65) – الكتاب، ج 3، ص 411.
- (66) – الكتاب، ج 3، ص 400.
- (67) – الكتاب، ج 3، ص 400.
- (68) – الكتاب، ج 3، ص 405.
- (69) – الكتاب، ج 3، ص 599.
- (70) – الكتاب، ج 3، ص 620.
- (71) – الكتاب، ج 3، ص 624.
- (72) – الكتاب، ج 3، ص 636.
- (73) – الكتاب، ج 3، ص 636. 637.
- (74) – الكتاب، ج 3، ص 637.
- (75) – الكتاب، ج 3، ص 648.
- (76) – الكتاب، ج 3، ص 648.
- (77) – الكتاب، ج 4، ص 176.